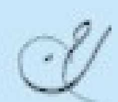
مجلة حوليات التراث

Revue Annales du Patrimoine

P-ISSN 1112-5020 / E-ISSN 2602-6945



حكاية مملوكية عن القضاء والقدر دراسة وتحقيق

A Mamluk story of fate and destiny Study and investigation

د. عبد الستار الحاج حامد

جامعة إسطنبول، تركيا

abdulsettar.hamed@istanbul.edu.tr

تاريخ الاستلام: 2023/4/27 - تاريخ القبول: 2023/6/6

23

2023

الإحالة إلى المقال:

* د. عبد الستار الحاج حامد: حكاية مملوكية عن القضاء والقدر دراسة وتحقيق، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الثالث والعشرون، سبتمبر 2023، ص 105-123.



http://annalesdupatrimoine.wordpress.com

***

مجلة حوليات التراث، العدد 23، 2023، ص 105 - 123
P-ISSN 1112-5020 / E-ISSN 2602-6945

حكاية مملوكية عن القضاء والقدر
دراسة وتحقيق

د. عبد الستار الحاج حامد
جامعة إسطنبول، تركيا

ملخص:

يتناول هذا البحث حكاية مسماة (حكاية القلعة التي كُتب على بابها: صاحب هذه القلعة رد القضاء والقدر، ثم غير الكتابة بقوله: تحت القضاء القدر)، دراسة وتحقيقاً. والحكاية المذكورة لا يعرف واضعها الأول ولا راويها، فالمخطوط الذي يحتويها لا يتضمن معلومات عن تاريخها أو كاتبها، وهي تُشبه عدداً من الحكايات الشعبية التي دُوّنت في القرن الماضي في مناطق مختلفة من العالم العربي. المقالة تتألف من قسمين؛ في القسم الأول قدمت معلومات عن مضمون الحكاية، وتاريخها والمخطوط الذي وجدت فيه، كما تم بيان تقاطع الحكاية مع الأساطير والقصص السابقة لها والحكايات الشعبية اللاحقة لها. أما في القسم الثاني فقد عرضت النص المحقق للحكاية المذكورة. إن البحث الذي اعتمد على المنهجين الوصفي والمقارن رجح أن تكون صياغة الحكاية تعود إلى العصر المملوكي وبين سبب هذا الترجيح، كما أشار إلى أن هذه الحكاية تمثل حلقة وصل بين الأساطير والحكاية السابقة لها، والحكايات الشعبية الحديثة، لذا فهي مهمة في فهم مسيرة الحكاية الشعبية لدى شعب من الشعوب.

الكلمات الدالة:

التراث الشعبي، الأدب الشعبي، الحكاية الشعبية، العصر المملوكي، القضاء والقدر.

A Mamluk story of fate and destiny
Study and investigation

Dr Abdulsattar Elhajhamed
Istanbul Üniversitesi, Türkiye

Abstract:

This article deals with the story of "The Castle That Was Written on its Door: The Owner of This Castle Restored Fate and Destiny", and then changed to: "Under the Fate and Destiny". Neither the first writer of this story nor its narrator is known. The manuscript containing this story does not include information about its date or author. The story is similar to a number of folk

تاريخ الاستلام: 2023/4/27 - تاريخ القبول: 2023/6/6
abdulsettar.hamed@istanbul.edu.tr

stories that were written down in the last century in different regions of the Arab world. The article consists of two parts; in the first part, information was provided on the content of the story, its history, and the manuscript in which it was found. The research showed the similarity of the story with the myths and stories that preceded it, and the folk tales that followed it. In the second part, the verified text of the aforementioned story was presented. The research, which relied on a descriptive and comparative approaches, suggested that the writing of the story dates back to the Mamluk era, and explained the reason for this. It also pointed out that this story represents a link between the myths and the previous story, and the modern folk stories, so it is important in understanding the folk tales of a people.

Keywords:

folklore, folk literature, folk tales, the Mamluk era, fate and destiny.

مقدمة:

بعض الحكايات الشعبية المنتشرة في مختلف أنحاء الوطن العربي تشترك فيما بينها بمعطيات حكائية تشي بوجود أصل أو أصول مشتركة لها، ولكن يصعب تحديد أصلها أو أصولها المشتركة، لأن الحكاية الشعبية تتصف بالعراقة، والمرونة، والشفاهية(1)، وقابلية التكيف مع البيئة التي تحل فيها، كما أنها لا ترتبط بمكان وزمان محددين في الغالب، وهي قادرة على تجاوز الحدود اللغوية والسياسية والانتقال من شعب لآخر. ومع أن الحكايات الشعبية لا يعرف واضعها الأول، ولا يعرف راويها الأول(2)، غير أننا من الممكن أن نجد في التراث القديم حكايات تشبه إلى حد كبير الحكايات الشعبية المنتشرة اليوم في العالم العربي(3).

والحكاية التي ننشر نصها في هذا البحث تُشبه عدداً من الحكايات الشعبية التي دُوّنت في القرن الماضي في مناطق مختلفة من العالم العربي، وهي بعنوان (حكاية القلعة التي كُتب على بابها: صاحب هذه القلعة رد القضاء والقدر، ثم غير الكتابة بقوله: تحت القضاء القدر). وهي حكاية دُوّن نصها على الأرجح في العصر المملوكي كما سنبين.

1 - الدراسة:

أ - مضمون الحكاية:

إنّ (حكاية القلعة التي كُتب على بابها: صاحب هذه القلعة رد القضاء والقدر، ثم غير الكتابة بقوله: تحت القضاء القدر) تؤكد أن لا مفر من القدر الذي اتخذ فيها صورة القسمة والنصيب. وتبدأ أحداثها بعودة تلميذ إلى شيخه بعد قيامه بجولة في البلاد، وسؤال الشيخ له عن أعجب ما رآه خلال سفره، فيخبره بأنه رأى قلعة كُتب على بابها: "صاحب هذه القلعة ردّ القضاء والقدر"، يرفض الشيخ تصديق ذلك، ويطلب من التلميذ العودة والتأكد مما رأى. يعود التلميذ إلى القلعة فيجد أن الكتابة قد غُيّرت وأصبحت: "صاحب هذه القلعة تحت القضاء والقدر"، فيندهش من ذلك، ويظل ينظر إلى القلعة باستغراب حتى يُقبض عليه، ويَمْثُل أمام الملك، يحكي للملك قصته، فيروي له الملك حكاية الكتابة التي حُوّلت. وملخص الحكاية أن الملك - وبمشورة من وزيره - أمر الناس بعدم إشعال النار أو إسراج المصابيح مدة ثلاثة أيام، ليختبر مدى طاعتهم له، في آخر ليلة ظهر نور من بيت امرأة تلد، وفي تلك الأثناء سمع الملك هاتفاً مفاده أن المولود سيتزوج ابنته، فارتاع وأخذ الطفل من أهله مقابل مبلغ من المال، ثم شق صدره وبطنه ورماه في البحر، وكتب على باب القلعة: "صاحب هذه القلعة ردّ القضاء والقدر"، لكن الطفل لم يمت، بل أوصله الماء إلى حيّ من العرب داووه وربوه، حتى بلغ الشباب. وجاء الملك إلى ذلك الحي بعد سنوات فتعرف على الشاب من أثر الجرح في صدره، واحتال لقتله مرة أخرى، فكتب رسالة إلى وزيره يأمره فيها بقتل حاملها، ثم طلب من الشاب أن يوصلها إلى الوزير. لكن ابنة الملك تمكنت من استبدال الرسالة برسالة أخرى تتضمن طلب الملك من الوزير تزويج الشاب منها فوراً، لتتحقق النبوءة، عندها غير الملك الكتابة إلى: "صاحب هذه القلعة تحت القضاء والقدر". في النهاية يعود التلميذ إلى الشيخ ويروي له ما سمعه من الملك.

والحكاية تحتوي على عدد من الشخصيات الرئيسة والثانوية، وهي:

- الملك: بدا مغلوباً على أمره، يتصرف وفقاً لما يُشير به الوزير، فأفعاله الشريرة التي قام بها ضد الشعب وضد الطفل كانت بتحريض من الوزير. وعلى الرغم من محاولته رد القضاء والقدر بقتل الطفل بيده مرة، وبرسالة مرة ثانية إلّا أنه فشل في ذلك، وأذعن في نهاية المطاف للقضاء والقدر. أسندت إليه مهمة رواية حكايته مع الطفل إلى التلميذ.

- الطفل: يولد ويولد معه قدره، تبدأ حياته بالمتاعب ومعاكسة الحظ له، ولد في إحدى الليالي التي أمر الحاكم فيها بعدم إيقاد السُّرج، وبيع للملك، ثم شُقّ صدره وبطنه وأُلقي به في البحر، بعد ذلك بدأ الحظ يبتسم له، فالماء ساقه لمن يداويه ويربيه، في مطلع شبابه أظهر شجاعة ونال استحسان الناس من حوله، وساعده القدر أخيراً فتمكن من الزواج من ابنة الملك. إلى جانب الشجاعة والبراعة كان يتمتع أيضاً بالوسامة التي ساعدت في النجاة من الموت.

- الوزير: كان واسطة سوء بين الملك والرعية، إذ كان يقوم بتحريضه عليهم وتنفيره منهم، إلّا أنه في النهاية هو من أشرف على تزويج ابنة الملك امتثالاً لأمر الملك الذي زَوَّرته ابنته.

- ابنة الملك: فتاة تعيش حياة رغيدة في قصر جميل، لها قدر من الذكاء والطيبة والحنان، أنقذت الشاب من الموت باستبدال الرسالة وتزوَّجَته.

ثمة شخصيات أخرى ثانوية كالحارس الذي يحرس قصر ابنة الملك، والجارية التي قامت بمهمة استبدال الرسالة، والتلميذ السائح الذي ساح في البلاد ورأى القلعة وسمع قصة الملك، والشيخ الذي طلب من التلميذ العودة إلى القلعة واستقصاء حقيقة الكتابة التي رآها على بابها.

أمّا الفضاء الذي دارت فيه أحداث الحكاية فهو واسع، إذ تعددت الأماكن وتنوعت، وأهمها المدينة التي يحكمها الملك، وهي مدينة مسورة بسور من حديد، والقلعة الفولاذية التي يقيم فيها الملك، وقصر ابنة الملك الجميل الذي يقع بجانب قلعة أبيها وقصره، وشاطئ البحر الذي يسكنه قوم من العرب قاموا

بانتشال الطفل من البحر وتربيته.

أما فيما يخص الزمن الذي تدور فيه الأحداث فهو غير محدد، ويمتد من ولادة الطفل إلى زواجه بعد بلوغه الخامسة عشرة من العمر وإنجاب زوجته لطفل، أي أن المدة الزمنية التي استغرقها السرد لا تقل عن ست عشرة سنة.

ب - تأريخ الحكاية:

على الرغم من أن المخطوط لا يحوي معلومات عن تاريخ الحكاية أو كاتبها إلا أن صياغة الحكاية - على الأرجح - تعود إلى العصر المملوكي، الذي يُمثل عصر ازدهار الحكاية الشعبية الخرافية[4] والسيرة الشعبية، ويظهر ذلك من الأسلوب الذي صيغت فيه، ومن استعمال بعض الألفاظ الشائعة حينئذ، مثل: كلمة "أشرفية"، وهي نوع من النقود التي ضُربت واستخدمت في العصر المملوكي[5]، وكلمة "فداوي" وتعني الشخص المنسوب إلى الطائفة الإسماعيلية، والمكلف بالقيام بمهمة اغتيال[6]، وكلمات "ست" (أي: سيدة) و"مَرسوم" (أي: أمر الملك المكتوب) و"رَسَمَ" (أي: أَمَرَ) التي كانت شائعة في أيام المماليك، وإن كانت مستعملة قبل ذلك العصر.

الحكايات الشعبية عموماً تعكس معتقدات الشعب الذي تروى فيه وتُتَناقلُ[7]. والحكاية المدروسة يظهر فيها أثر ملحوظ للبيئة المملوكية الإسلامية الصوفية يتمّثل بإطارها الديني الصوفي، فثمة تلميذ لاحظ كتابة على باب قلعة، وأخبر شيخه بما رأى، غير أن الشيخ طلب منه العودة مرة ثانية للتثبت من الأمر، فامتثل لأمر الشيخ وعاد من جديد ليرى أن الكتابة قد غُيِّرت. إن تضمّن الحكاية تلميذاً مريداً يُطيع أمر شيخه الذي لا يخيب حدسه يحمل في طياته إشارة إلى البيئة التي كُتب فيها، وهي البيئة المملوكية التي كانت الصوفية وطرقها منتشرة فيها انتشاراً واسعاً[8]. والحكاية يغيب عنها النسق العجائبي والسحري، وتشتمل على نسق قدري وعناصر إسلامية، فالرسالتان الواردتان في النص بُدئتا بالبسملة، كما أن زواج ابنة الملك تم وفقاً للشريعة، فعندما أريد تزويجها أُحضر القضاة، وعُقِدَ القران. إلى جانب ذلك نرى تضميناً لآية من القرآن الكريم، وهي

قوله تعالى: (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)، "سورة الرحمن، الآية 52".

ثم إن الحكاية تتقاطع في بعض جزئياتها مع حياة المماليك في الدولة المملوكية، فشراء الملك للطفل من أهله، يذكرنا بشراء سلاطين المماليك للمماليك وهم صغار. ونشأة الطفل بعيداً عن أهله وتربيته في حي من العرب، تذكرنا بنشأة المماليك في المدن العربية بعيداً عن أهلهم في مكان يتلقون فيه تعليماً عسكرياً ودينياً. والشاب الذي استطاع الوصول إلى القصر - وبالتالي إلى الحكم - وليس لديه من المؤهلات إلا الشجاعة والوسامة، يذكرنا بالمملوك الذي كان يستطيع أن يصل إلى أعلى المناصب، بما في ذلك منصب السلطان، إذا ما امتلك القوة وابتسم له الحظ، بغض النظر عن عرقه وحسبه ونسبه.

ولربما كان الأصل الأول للحكاية يعود إلى مرحلة أبكر من ذلك، لكن الحكاية أخذت هذا الشكل النصي في الحقبة المملوكية على الأرجح. فالحكايات الشعبية تأخذ شكلها من البيئة التي تروى فيها، وليس بالضرورة من البيئة التي تنشأ فيها، فالحكواتي يقوم "بتبْيئة الحكاية التي سمعها من بيئة غير بيئته، ويُحمِّلها من "الحشو" السردي ما يُتيح لسامعها من بيئة الحكواتي نفسه التعرف عليها والتماهي معها على أنها من خصوصياته"[9].

جـ - تقاطع الحكاية مع الأساطير والقصص السابقة لها:

تتقاطع أحداث الحكاية موضوع البحث مع أسطورة أوديب في مجموعة من النقاط، فالموضوع الأساسي فيهما مشترك، ألا وهو محاولة مجابهة القدر والفشل في ذلك، في النصين ثمة طفل يولد ويولد مع قدره، يحاول أحدهم تغيير ذلك القدر بقتل الطفل إلا أنه يفشل، وتتحقق النبوءة وينتصر القدر في النهاية. بيد أن النبوءة مختلفة فيهما، ففي أسطورة أوديب تقول النبوءة إن المولود سيقتل أباه ويتزوج أمه، إلا أنها في الحكاية موضوع البحث تقول إن المولود سيتزوج من ابنة الملك ويقتل الملك. رغم أن النبوءة في الحكاية والأسطورة تتضمن أمرين مشتركين هما القتل والزواج، إلا أن القتل لم يتحقق في الحكاية، كما أن الزواج الذي تحقق في

الحكاية ليس محرماً، كما هي الحالة في زواج أوديب. وثمة نقطة أخرى تخالف فيها الحكاية أسطورة أوديب، وهي أن المولود ليس ابنا للملك أو سليل طبقة النبلاء، إنما هو من عامة الشعب. كما يلاحظ أن دور العراف في الأسطورة أسند في الحكاية إلى هاتف لم يسمعه إلّا الملك.

كما تتقاطعُ أحداث الحكاية مع قصة موسى عليه السلام في نقاط منها - إلى جانب النبوءة وتحققها رغم محاولة الحيلولة دون ذلك - أنّ المولود من عامة الشعب، وأنه أُلقي به في البحر، لكنه لم يمت بل أوصلته المياه إلى من يقوم بتربيته.

وفي الحكاية أيضاً عناصر عربية من قصة الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد وخاله المتلمس اللذين زَوَّد كل منهما الملك النعمان برسالة تتضمن أمراً بقتله وهو لا يعلم بذلك.

د - الحكايات اللاحقة المماثلة لها:

ثمة حكايات مماثلة للحكاية التي بين أيدينا صيغت على الأرجح في القرنين الماضيين في عالمنا العربي؛ ودونت في القرن الماضي في سورية ولبنان وفلسطين والعراق ومصر وتونس(10)، وهي:

- حكاية (قسمة ونصيب) الحلبية التي أوردها الأستاذ الدكتور أحمد زياد محبك في كتابه "حكايات شعبية"(11).

- حكاية (كل مقدر لا بد أن يأتي) أوردها أحمد بسام ساعي في كتابه "الحكاية الشعبية في اللاذقية"(12).

- حكاية (ما قدر يكون) اللبنانية التي أوردها كرم البستاني في كتابه "حكايات لبنانية"(13).

- حكاية (اليتيم) التي دوّنها عمر عبد الرحمن الساريسي في عَمان، سنة 1971م، عن الحاج أحمد حسن إبراهيم، من قرية ساريس في منطقة القدس(14).

- حكاية (النصيب) العراقية التي دونها من العراق يوسف أمين قصير في كتابه "الحكاية والإنسان"(15).

- حكاية مصرية صعيدية بلا عنوان أوردها أحمد أبو زيد في كتابه "الثأر، دراسة أنثروبولوجية في إحدى قرى الصعيد"[16].

- حكاية (المكتوب على الجبين) التونسية التي رواها الحكواتي التونسي عبد العزيز العَرَوي (1898م-1971م) على أثير الإذاعة التونسية، ثم قدمتها مؤسسة الإذاعة والتلفزة التونسية ممثلة ضمن عملها الموسوم بـ(من حكايات المرحوم عبد العزيز العَرَوي)[17].

لا شك أن الحكايات السالفة الذكر تختلف في تفاصيها وصياغاتها عن بعضها البعض وعن الحكاية التي نعرض لها - فالحكاية الشعبية ليست ذات شكل ثابت بل تتخذ أشكالاً عديدة أثناء روايتها، ويعتريها بعض التغيير مع مرور الزمن - إلا أن مضامينها جميعاً متشابهة إلى حد كبير، وعند دراستها يتبين لنا أنها صيغ مختلفة لحكاية واحدة، فثمة في الحكايات جميعها ملك يخرج من قصره ويصادف طفلاً حديث الولادة، يحاول التخلص منه بعد أن يُنبأ بأنه سيتزوج من ابنته، لكن الطفل ينجو من الموت، وبعد سنوات يتعرف الملك على ذلك الطفل الذي أصبح شاباً، ويحاول التخلص منه مرة أخرى برسالة تتضمن أمراً بقتله، لكن الرسالة تُستبدل برسالة تتضمن أمراً بتزوجه من ابنة الملك، فيتزوجها.

إن هذه الحكايات اللاحقة للحكاية المدروسة قد تكون كل واحدة منها أو بعضها نسخة محوّرة عن الحكاية المدروسة، لأنها الأقدم تدويناً، لكن لا يمكن الجزم بذلك، خاصة فيما يخص الحكايتين العراقية والمصرية اللتين يرى شربل داغر أنهما تشتملان على نسق اعتقادي سحري يشير إلى زمن الخوارق والأحداث العجيبة، وهو ما لا نجده في حكايتنا التي تشتمل على نسق اعتقادي قدري يشير إلى زمن الدين. وهذا يدل على أن الحكايتين العراقية والمصرية تتضمنان عناصر أقدم من عناصر الحكايات الأخرى، وأنهما تحتفظان "بمبنى فني هو أقرب إلى المبنى الفني الخاص بالأصل"[18].

وربما كان هناك أصل أقدم تولدت منه تلك الحكايات والحكاية المدروسة،

وعندها تكون الحكاية المدروسة نسخة تحورت عن الأصل لتلائم البيئة التي دُوّنت فيها، وهي البيئة المملوكية على الأرجح. وأياً ما يكن الأمر فأن هذه الحكاية تساعد على فهم مسيرة الحكاية الشعبية، وكيفية تطورها، وتعقب التغيرات التي طرأت عليها.

هـ - معلومات المخطوط:

الحكاية وردت في مخطوط مجموع في مكتبة أتاتورك التابعة لبلدية إسطنبول يحمل الرقم (OE-503)، ويحتوي على مجموعة من الكتب والرسائل يبلغ عددها 24 كتاباً ورسالة يغلب عليها الطابع الصوفي، وأولها كتاب (حل الرموز ومفتاح الكنوز) للشيخ عز الدين عبد السلام المقدسي. وتحتوي صفحة عنوان المخطوط على بعض التمليكات منها: "برسم مولا إبراهيم أفندي بن الحاج خضر المولى بقضاء أريحا، دام فضله، وألهم عدله، ووفقه الله لما هو أهله". وثمة عبارة "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم..." وأسفلها ختم قديم معالمه غير واضحة.

والحكاية موضوع البحث وردت في الورقات من 170 إلى 174، وتحوي كل صفحة منها على 17 سطراً، ويبلغ عدد الكلمات في السطر الواحد 11 كلمة وسطياً.

والحكاية مقابلة على نسخة أخرى، وتحوي بعض التصويبات التي كتبت تحت أو فوق بعض الكلمات التي كتبت خطأ. وثمة تعليق على النص كُتب بخط مشابه للخط الذي كُتبت به التصحيحات وهو: "قال علي رضي الله تعالى عنه: "يدبر المدبرون والقضاء يضحك". كذا في نشر اللآلئ، وأنا أقول بيت: شب وروز ردّ القضايه نيجه جهد ايتسه كشي/ ينه مقراض قضادن باشني قورتارامازْ"[19]. وفي النهاية كتب المُعلّق المصحح اسمه وهو الحاج مخزون القيصري. ويظهر أن المصحح تركي عاش في زمن الدولة العثمانية كما يتضح من بيت الشعر.

2 - نص الحكاية:

حكي أنّ بعض المشايخ كان له تلامذة يشتغلون عليه في علوم، وأنّ شخصاً

من تلك التلامذة خرج إلى بعض أسفاره بعد أن أخذ جانباً من العلم ما فيه كفاية له، فَسَاح مدّة من الزمَان، ثم عاد إلى عند شيخه، فسلّم عليهِ، وجلس عنده، فشرع شيخه يسأله عن حاله وعمّا رآه في أسفاره، وهو يُخبره، إلى أن سأله عن أعجب ما رأى في سِيَاحته تلك، فقال: لقد رأيت في سيَاحتي أنني أتيت إلى مدينة فرأيتها على بعدٍ كوم سوادٍ، فوصلتها فرأيت سورها من حديد، فدخلتها فوجدت قلعتها وقصرها من فولادٍ، ورأيت مكتوباً على بابها: صاحب هذه القلعة والقصر ردّ القضاء والقدر.

فقال له الشيخ: هذا لا يمكن أن يُقال، ولعل هذه الكتابة تَصَحَّفَتْ عليك، فنقلتَ غيرَ الصحيح.

فقال: ما رأيت مكتوباً إلّا هكذا.

فقال له الشيخ: لا بأس إنك تُسافر ثانياً، وتدخل هذه البلدة، وتنظر هذه الكتابة، وتُحرِّر لنا أمْرَها.

وألزمه بذلك فأجاب، فجمع له من الطلبة، كل أحد على قدر حاله، وزوّدوه، وقالوا: تستعين بهذا على سفرك. فودَّعهُم، وَسَار ليلاً ونهاراً يقطعُ البراري والقِفار، ولم يزل على مثل ذلك إلى أن وصل إلى تلك البلدة ودخلها، وجاّء فوقف على باب قلعتها وقصرها، وقرأ تلك الكتابة فوجدها: صاحب هذا القصر وهذه القلعة تحت القضاءِ والقدر.

فقال: والله ما هكذا كان مكتوباً. وشرع يُرَدّدُ نظره في الكتابة وهو يشكك في أمرها، إلى أن فطن به صاحب القلعة من أعلاها، ونظره فعرف أنه غريب، وهو باهت يُطيل النظرِ إلى القلعة والقصر، فاعتقد أنه يقصد أمراً من الأمور، فقال الملك لجماعته: عليَّ بهِ. فنزلوا إليه وأحضروه إلى الملك. فلمّا وقف بين يديه قال له الملك: ما شأنك؟ لعلك جَاسُوس!

قال: لا والله.

قال: لعلّكَ فِداوِياً؟[20].

قال: لا والله.

قال: فما بالك؟

قال: رجل غريب من طلبة العلم الشريف، ومن حديثي أني سِحْتُ في الدنيا مدة من الزمان، ثم أتيت هذه البلدة ودخلتها، فوجدت قلعتها وقصرها من فولادٍ، ورأيت مكتوباً على بابها: صاحب هذه القلعة والقصر رَدَّ القضاءَ والقدرَ. فتعجبت من هذا الكلام، فلمّا عُدتُ إلى بلدي سَلَّمتُ على شيخي وجماعته من التلامذة، وشرع الشيخ يسألني عن حال وأنا أخبره عن ذلك أولاً فأول، إلى أن سألني عن أعجب ما رأيت في سياحتي، فأخبرتهُ بِهَذِه البلدة، وأنها كوم سواد وسورها من حديد، وقلعتها وقصرها من فولاد، مكتوب على بابِهَا: صاحب هذه القلعة رَدَّ القضاّءَ والقدرَ. فتعجب الشيخ من هذا الكلام، ولم يحملني على الصدق، وقال: لعلك تصحّفتْ عليك الكتابةُ، فقلت: كلا. فقال: لا يمكن مثل هذا الكلام يُكتب، ولا بد أنك تعود مرة ثانيه فتنظر لنا الكتابة وتحرّرها، وترجع تخبرنا بحقيقتها. وكلفوني إلى ذلك فَأَجَبْتُ، وساعدُوني الطلبة بشيء أُنفِقُهُ عليّ في طريقي، وقد وصلت ودخلت هذه البلدة، ووقفت أنظر هذه الكتابة، فوجدتها غير ما رأيت، وأنها: صاحب هذه القلعة والقصر تحت القضاءِ والقدرِ. فتعجبت كيف غُيرّ ذلكَ بهذا، وصِرتُ أُراجعُ نفسي، وقُلْتُ: لم أره في الأول هكذا. وأنا على مثل ذلك إذ حضر قاصد الملك[21] وَطلبني فحضرت أَنْظُرُ ما يأمر به الملك.

فقال الملك: حقيقاً مَا تقول؟

فقلت: نعم لم يكن غير ذلك.

فقال: إن اخترت أخبرتك بالقصة، وما سبب الكتابة أولاً كما رأيت، ثم ما سبب تغييرها بهذه الكتابة ثانياً.

فقلت: نعم لم أحضر إلّا لأجل ذلك، ليس إلّا هو.

قال: كان عندي[22] وزير، وكان واسطة سُوءٍ، لم يزل يأمرني بقطع أرزاق الناس وتنفير خاطري عنهم وبغضهم وإبعادهم عنّي، إلى أن قال لي في بعض الأيام: إن أهل بلدك يكرهونك، وليسوا براضيين بك. فقلت[23]: كيف

علمتَ ذلك؟ قال: ظهر لي منهم ما يدل على صحّة ما قلت، وإن أحببتَ أن تعلم صحّة ما أقول أنادي في البلد أن لا يُوقِدُوا نَاراً، ولا يُسرجوا مصباحاً مدّة ثلاثة أيام بليَاليها، فأذنت[24] بذلك، فنادى مناد من قبله: إن الملك يأمر أهل البلدة جميعهم أن لا يوقدوا ناراً ولا يُسرجوا مصباًحاً منذ[25] ثلاثة أيام، ففعلوا.

فلمَّا كان في ليلة اليوم الثالث قال لي الوزير: أيها الملك قم بنا حتى نتخفى بالليل وننظر إن كان أَشعَلَ أحد ناراً أو أوقد مصباحاً، ليظهر لك من يحبك ممن يكرهك، بامتثال كلامك أو بمخالفة أمرك. فقمت وأخذت معي من كان عندي من الأمراء ممّن أثق بهم[26]، وصرنا نسير من شارع إلى شارع، ومن مكان إلى مكان، إلى أن وصلنا إلى بيت فوقفنا بالباب، فوجدنا نوراً ساعة يظهر وساعة يختفي، فنظرنا فإذا نحن بامرأة قد أخذها المخاض، وقد أوقدوا لها نوراً تَسْتَضِيءُ بهِ، لينظروا الولد كيف ينزل، ويعلموا مصالحه، وقد جعلوا النور تحت شيء يستره، فإذا احتاجوا إليه كشفوا عنه، وإذا قضوا حاجتهم منه ستروه.

فقال الوزير: انظر أيها الملك كيف خالفوا كَلاَمَك، وفعلوا غير الذي أمرت به، ألم أقل لك أن أهل بلدك لا يحبّونك؟

فوقفنا سَاعة وإذا قد وضعت المرأة ولداً ذكراً، وهاتف يقول: إن هذا المولود يتزوج ابنتك يا أيها الملك[27]، ويكون قتلك على يديه. فرجعنا إلى القصر، فقلتُ لهم: هل سمعتم ما قال الهاتف الذي هتف بي وأنا واقف بالباب؟ فقالوا: لم نسمع شيئاً، وما الذي سمعت أيها الملك؟ قلت[28]: سمعته يقول كيت وكيت.

فلمَّا أصبحنا استدعيت بأصحاب ذلك البيت فحضروا وأحضروا ذلك المولود معهم، فقلت: ألم تسمعوا النداء من قبلي أن لا توقدوا ناراً ولا تشعلوا مصبَاحاً منذ ثلاثة أيام؟ فما بالكم خالفتم أمري وأوقدتم المصباح؟ فقالوا: أوقدنا لأجل هذا المولود، نستعين به على شأنه وشأن أمّه، وكنّا تارة نخفيه وتارة نظهره، ولم نصنع به شيئاً من أنواع الأكل والشرب حتى نكون قد خالفناك. فقلت: أروني هذا المولود، فناولوه إياي[29] في خرقة ملفوف بها، فرأيته صغيراً. فقلت: هل تعلمون

ما ديّة الأدمي؟ قالوُا: اثنتي[30] عشر ألف درهم. فقلت: أنا أعطيكم أربعة عشر ألف درهم، وآخذ هذا المولود أُرَبّيِهِ، فإنّي قد وقع له في قلبي الرأفة والشفقة. فلم يقبلوا مني، فما زلت بهم إلى أن سمحوا لِي به، وأعطوني المولود، وأعطيتهم أربعة وعشرين ألف درهم، فأخذوا المبلغ وذهبُوا. فعمدت إلى المولود وأخذت موساً وشرطت به مِن زُرْدِمَتِهِ إلى سوأَتِهِ، وَأَرمَيتُ به فِي البحر، وكان ذلك بإشارة الوزير. فلمَّا فعلتُ ذلك كتبتُ على باب القلعة: "صَاحب هذه القلعة رَدَّ القضاء والقدر".

وقُدِّرَ أن ذلك المولود لمّا ألقيته في البحر كان على شاطئ البحر فريق[31] من العَرَب نازلون هناك، فنظر كبير الفريق فرأى في البحر شيئاً أبيض والموج يشيله[32] ويحُطّه، فالتفت إلى بعض الوصائف وقال لها: انزلي إلى هذا البحر، وانظري إلى هذا الذي فيه. فأسرعت ونزلت فوجدت ذلك المولود فجاءت به إلى سيدها، فقال: ما هذا؟ قالت: مولود، وهو غلام، إلّا أنه مشروط من الزردمة إلى السوءة. فوضع يده على فيه فوجد النَفَس يصعد وينزل، فاستدعى بالوصَائف ونسوان الحيّ، وأطلعهم على حَاله، وقال: كل من عندها شيء من معالجة هذا فليظهره [33]. فأخاطوا شرطه، وطيَّبوهُ بأنواع المراهم، فختم جرحه، فكان كأن لم يكن، وَجَعَلوا يرضعونه ويربونه إلى أن كبر ومشى، ونشأ وركب الخيل، وصار له من العمر خمسة عشر[34] سنة، فظهر منه مِن الشجاعة والبراعة ما لا يوصف، وجعل كبير ذلك القوم لا يرسله إلى أمرٍ من الأمور إلّا قضاه كأحسن ما يكون، وأحبّه محبة عظيمةً، ودعاه بابنه، فلمَّا ظهر أمره أحبّه جميع أهل ذلك الفريق.

فلمَّا كان في بعض الأيام خَطَر في خاطري أن أركب وأسير في البلاد، وأتفرج في مُعَاملتي وأصيد، فلما ألقيت حلقة الصيد ألجاني الأمر إلى أن وَصَلنا إلى فريق ذلك العرب، فخرج كبيره، ونزّلني، وَجَاء بالذبائح والضيافات، فنظرت إلى ذلك المولود وهو مشدود الوسط مغلوق الصدر، وهو واقف يقدّم الموائد، ويخدم خدمة لم يُر مثلها، فأعجبني حاله، فسألته عن حاله، فذكر أنه ولده، فقلت

له: ولدك من صلبك أم ربيب؟ قال: بل ربيب. فسألته عن أمره فأخبرني بخبره، وكيف قذفه البحر إليه، وكيف عالجه، وكيف وجده مشقوق البَطْنِ والزَردمَةِ[35]، وما فعل معه إلى أن صار كما تراه. فنظرت إلى صدره فوجدتُ أثر الموس وقد اختم، فعرفتـ(ـه) وقد تكدر خاطري وتَنَغَّصَ عيشي، فقلتُ لأمير ذلك الحي: إن لي حاجة ببلدي، وقصدي أكتب بسببها على يد نشيط ذو[36] همة وشهامة، فقال: أيها الملك إنك لا تجد مثل ولدي هذا الغلام. فقلت: وذاك قَصَدْتُ. فطلبه أمير ذلك الحيّ وقال له: يا ولدي إن الملك عرض له أمر ببلده وقصده من يتوجه في قضائه، فأعلمته أنك كفؤ لكل مُهمّ، فإذا وجّهك فلا تتهاون فيما نتوجه بسببه. فقال: حُبّاً وكرامة.

فأخذتُ دواةً وقرطاساً وكتبتُ إلى وزيري بعد بسم الله الرحمن الرحيم أَمّا بعد، أيها الوزير إذا وقفت على كتابي هذا وقرأته وفهمت مَا فيه، فتقدم بالقبض على هذا الغلام، وتقطعه أربع قطع، وأجعل على كُل ربع من أرباع المدينة ربعاً منه. ثم ختمت الكتاب، وناولته للغلام، فتوجّه به يسير الليل والنهار، فَمَا مضت مُدّة من الأيام حتى وَصَل إلى المدينة.

وكان الملك قد بنى لابنته قصراً قريباً إلى قصره، وبنى تحته بستاناً، وجعل فيه من كل فاكهةٍ زوجان، واتخذ في الأشجار أعشاشاً لسائر الطيور، وصارت الطيور تخرج من تلك الأعشاش فتقعد على تلك الأفنان تُغَرِدّ بلغاتها لتشرف ابنة الملك على ذلك البستان، وعلى تلك الطيور، فينشرح خاطرها، وعندها من الجوار الحسان وجماعة من الخدام على بَابهَا يقضون أشغالها.

فجاء الغلام مُصَادفاً نزل من نَاقته ونام على باب ذلك البستان ليستريح من تعبه، فأشرفت ابنة الملك من أعلى القصر فإذا هي بصبي نائم، وناقته إلى جانبه، فنظرتْ فإذا في رأسه شيء يُشبه الورقة، فاستدعت بعض جواريها وأعطتها عشرة أشرفية[37]، وقالت: اخرجي إلى البستان كأنكِ تجنيـ(ن) زهراً، فإن قال لكِ الخادم شيئاً فأعطيه هذه العشرة أشرفية ليسكت عنك. ففعلت، فلمّا عارضها

الخادم أعطته ما مَعَها وعرّفته أن قصدها تجني للست[38] زهراً، فلم يتكلَّم، وخرجت إلى البستان، وجَاءَتْ، فوجدت الغلام نائماً وهو كالبدر من حسنه، فمدت يدها إلى رأسه وتناولت المرسوم وأحضرته إلى ستها.

فلمّا قرأته لم يسهل عليها، وقد أخبرتها الجارية أنّه شاب حسن خالي العذار[39]، لم ترَ أحسن منه وجهاً، فقطعتِ الكتّابَ، وكتبت بخطها بعد بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛ أيها الوزير إذا وصل كتّابي هذا إليك فتقدم بتزويجه من ابنتي في لَيلتِهِ، ولا تهمل ذلك، والسلام. وختمتْه ودفعته للجارية، وقالت: اُخرجي على عادتك كأنك تجنيـ(ن) ما بقي من الزهور، وتوصّلي إليه، واجعلي هذا الكتّاب مكان الذي أَخذتيه، بحيث أنكِ لا تزعجيـ(نـ)ـه، ففعلت.

فَلَمّا انتهت إلى الخادم قال لها: ما حاجتك؟ فأعلمته أنها تجني من ذلك الزهر، وأنها لم تأخذ كفايتها. فقال: حبّاً وكرامةً. فخرجت إلى البستان وجعلت ذلك الكتّاب مكان الذي أخذتهُ، ورجعت إلى ستها ومعها شيء من الزهر توهم أنها تجتنيه. فلمَّا دخلتْ إلى القصر أفاق الغلام من نومه، وغسل وجهَهُ، وركب ناقَتَهُ، ودخل قصر الإمارة، وقف بين يدي الوزير، ودفع إليه الكتّاب. فلمّا قرأه جمع أرباب الدولة واطَّلعوا على الكتّاب وما فيه قالوا: حبّاً وكرامةً، لو لم يرَ الملك أن هذا يصلح للمُصاهرة ما اختاره علي غيره وجهزه من بلادٍ بعيدة. وجعل كلّ واحد يقول: والله إنّه يصلح، وإنّه شابٌ حسن. فطلبوا القضاةَ، وكتبوا كتّاب ابنة الملك، ودخل بها من ساعته.

ثم إني غبتُ مدّة من الشهُورِ فحملت البنتُ من الغلام فولدت ولداً ذكراً، وفرحوا به خواص الملك، فلمَّا كان بعد مدّة من الزمان رجعتُ من السفر، فَخَرَجُوا الناس إلى لقائي على العادة، وجعلوا يهنؤوني بالسلامة وبالمولود، فقلت: ما هذا المولود؟[40] قالوا: الذي رسمتَ أن تزوج إياه من ابنتك. فقلت: لم أكتب إليكم كتّاباً بهذا المعنى، فأحضروا لي الكتّاب. فلمّا قرأتُه عرفت خط ابنتي، فتحققت قول الهاتف، فكتبت عوض ما كان مكتوباً على باب القلعة[41]: "صاحب هذه القلعة تحتَ القضاءِ والقدرِ". وها أنا منتظر ذلك.

ثم رجعِ التلميذ إلى شيخه، وأعلمه بالأمر من أوله إلى آخره، وبما أخبره الملك مفصلاً.

وهذا ما انتهى إلينا من الكلام، والحمد للهِ وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش:

1 - عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية، مكتبة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 1997م، ص 19-20.

2 - أحمد زياد محبك: من التراث الشعبي، الحكاية الشعبية، مجلة الموقف الأدبي، العدد 148، ص 55.

3 - ينظر على سبيل المثال: بسام ساعي: منهج في دراسة الحكاية الشعبية، مجلة المعرفة، العدد 204، 1979م، ص 84-105؛ هشام بنشاوى: الحكاية الشعبية، مجلة قوافل، العدد 36، ص 29.

4 - فريدريش فون ديرلاين: الحكاية الخرافية، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار النهضة مصر، القاهرة 1965م، ص 19.

5 - تقي الدين المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1418هـ-1997م، ج7، ص 224 و287.

6 - محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق 1990م، ص 117.

7 - شربل داغر: من الأدب الشعبي إلى الأدب المتناقل، مجلة حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة البلمند، الكورة (لبنان)، العدد 9، 1999م، ص 74.

8 - محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف بمصر، 1971م، ج1، ص 193.

9 - شربل داغر: من الأدب الشعبي إلى الأدب المتناقل، ص 90.

10 - درس شربل داغر باستفاضة خمساً من الحكايات التي تشبه الحكاية موضوع البحث. ينظر، شربل داغر: من الأدب الشعبي إلى الأدب المتناقل، ص 57-90.

11 - أحمد زياد محبك: حكايات شعبية، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 1999م، ص 767-771. ذكر المؤلف أنه سمع معظم الحكايات التي أوردها في الكتاب في مدينة حلب وريفها.

12 - عمر عبد الرحمن الساريسي: الحكاية الشعبية في المجتمع الفلسطيني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1980م، ص 310-311.
13 - المرجع نفسه، ص 311-313.
14 - المرجع نفسه، ص 313-314.
15 - المرجع نفسه، ص 315-316.
16 - المرجع نفسه، ص 309-.310
17 - موقع (www.youtube.com/watch?v=RPLRSs6MTKk).
18 - شربل داغر: من الأدب الشعبي إلى الأدب المتناقل، ص 74-75.
19 - البيت بالتركية، ومعناه: لو اجتهد الشخص ليل نهار في رد القضاء/ فإنه لن يتمكن من تخليص رأسه من مقراض القضاء.
20 - الفداوي: اسم منسوب إلى الفداوية، وهي الطائفة الإسماعيلية، وهم الذين يأخذون فدية أنفسهم على الاستماتة في مقاصد من يستعملهم. ويسمون الفداوية لأنهم يقتلون من أمرهم أميرهم بقتله ويأخذون فديتهم منه. ينظر، ابن خلدون الحضرمي: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، ط2، بيروت 1408هـ-1988م، ج4، ص 126 وج5، ص 151.
21 - تحتها: قاصدك.
22 - في الهامش: ضدّي، نسخة.
23 - في المتن: قال. لكن أثبت الصواب المكتوب تحتها.
24 - في المتن: فأذن. لكن أثبت الصواب المكتوب تحتها.
25 - هكذا وردت، والصواب: لمدة.
26 - في المتن: "فقام وأخذ معه من كان عنده من الأمراء ممن يثق بهم". لكن أثبت الصواب المكتوب تحتها.
27 - يا أيها الملك: أضيف إلى النص بين السطرين فوق كلمة "ابنتك".
28 - في المتن: قال. لكن أثبت الصواب المكتوب تحتها.
29 - في المتن: "فقال: أروني هذا المولود، فناولوه إياه". لكن أثبت الصواب المكتوب تحتها.
30 - الصواب: اثنا.
31 - الفريق: جماعة من الناس أكبر من الفرقة. واستخدمت الكلمة هنا بمعنى حي، كما هي الحال في بعض اللهجات العربية اليوم.
32 - كتب فوق الكلمة: يرفعه. وهو شرح لمعناها.

33 - الصواب: فلتظهره.
34 - الصواب: خمس عشرة.
35 - الزَّرْدَمَةُ: الغَلصَمَةُ، أو موضِعُ الابتلاع، تقع تحت الحلقوم، واللسان مركّب فيها.
36 - الصواب: ذي.
37 - كتب تحتها: من الدراهم والدنانير.
38 - كتب تحتها: السيدة.
39 - خالي العذار: وهو من قول العوام للأمرد. تاج العروس، (خ ل ع).
40 - هكذا وردت. والصواب: ابن من هذا المولود؟
41 - في الهامش: قوله: "فكتبت عوض ما كان مكتوباً على باب القلعة" وهو قوله: "صاحب هذه القلعة والقصر رد القضاء والقدر".

References:

* - The Holy Quran.

1 - Al-Maqrīzī, Taqī al-Dīn: Al-sulūk li ma‘rifat duwal al-mulūk, edited by Muḥammad ‘Abd al-Qādir ‘Aṭṭā, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyya, Beirut 1997.

2 - Al-Sārīsī, ‘Omar ‘Abd al-Raḥmān: Al-Ḥikāya ash-sha‘biyya fī al-mujtama‘ al-filisṭīnī, al-Mu’assasa al-‘Arabiyya li al-Dirāsāt wa al-Nashr, Beirut 1980.

3 - Binshāwī, Hishām: "Al-ḥikāya al-sha‘bīyya", Majallat Qawāfil, Issue 36.

4 - Dagher, Charbel: "From popular literature to the peddling one", Ḥawliyyāt, Faculty of Arts and Sciences-University of Balamand, Issue 9, 1999.

5 - Dahmān, Muḥammad Aḥmad: Mu‘jam al-alfāẓ al-tārīkhīyya fī al-‘aṣr al-Mamlūkī, Dār al-Fikr, Damascus 1990.

6 - Ibn Khaldūn, ‘Abd al-Raḥmān: Kitāb al-‘ibar wa-dīwān al-mubtada’ wa al-ḥabar fī ayyām al-‘Arab wa al-‘Ajam wa al-barbar wa man ‘āṣarahum min dhawī al-sulṭān al-akbar, edited by Khalīl Shahāda, Dār al-Fikr, 2[st] ed., Beirut 1988.

7 - Muḥabbak, Aḥmad Ziyyād: "Min al-turāth ash-sha‘bī, al-ḥikāyat ash-sha‘biyya", Al-Mawqif al-Adabī, Issue 148.

8 - Muḥabbak, Aḥmad Ziyyād: Ḥikayāt sha‘biyya, Ittiḥād al-Kuttāb al-‘Arab, Damascus 1999.

9 - Sā‘ī, Bassām: Manhaj fī dirāsat al-ḥikāya al-sha‘biyya, Majallat al-Ma‘rifa, Issue 204, 1979.

10 - Salām, Muḥammad Zaghlūl: Al-adab fī al-‘aṣr al-Mamlūkī, Dār al-Ma‘ārif bi-Miṣr, Cairo 1971.

11 - Von der Leyen, Friedrich: Al-Ḥikāya al-khurāfiyya, (Das Märchen), translated by Nabīla Ibrāhīm, Dār al-Nahḍa, 1st ed., Cairo 1965.
12 - Yūnus, ʻAbd al-Ḥamīd: Al-Ḥikāya ash-shaʻbiyya, Maktabat al-Dirāsāt al-Shaʻbiyya, Al-Ḥayāt al-ʻĀmma li Quṣūr al-Thaqāfa, Cairo 1997.